القضاء عند عرب البادية (١)

فطر الأعرابي على حب العز والفخار ، تصبو نفسه الى المكارم وشريف الأعمال ، ولا يخلد الى الذل والصغار ، مهما جابهته المصاعب والأقدار . وهو لا يطمح الى المعالي إلا لينال صيتاً بعيداً وشهرةً واسعة بين اقرانه وفي عشيرته . فيغار البدوي على شرفه . ويؤثر المنون على العار والهوان ، وتنهض به عزة نفسه الى الانتقام ، او طلب الحق امام القاضي البدوي . وقد يثور ثائره لأدنى امرٍ يحظ بقدره ويخفض من حاله .

(ماهي الحقوق البدوية التي يستند اليها قضاتهم ؟) — هي قوانين نقلية محفوظة في البادية مرسومة لتأديب المجرمين وتهذيب الأعراب ، يعرفها ارباب القضاء ويجرون عليها ، وبها يعوضون لصاحب الحق او لأهله ما فقدوه من الشرف او المال اوالحياة . ومن هذه القوانين عندهم أن الأخذ بالثأر لا يعد فربة يجازى عليها المنتقم . فالانتقام عندهم من النواميس الشريفة والفرائض الضرورية المقدسة التي لا يسعهم تجنبها ولو طال عهدها فالضغينة تبقى مستورة في صدورهم كالنار تحت الرماد ، فيأتي الريح يوماً ويكشف الرماد وتظهر الثارات والأحقاد . وكثيراً مايرفض الأعراب حكم قاضيهم ليرووا ظمأهم بدم الأعادي ، ويثأروا للقتيل وينالوا الطوائل بايديهم وقد يجمع الأعرابي اولاده على سرير موته ويوصيهم أن يأخذوا الثأر من احد اعدائه ، ولا يدعو الدم يصرخ الى السماء صراخاً اليماً . فأنهم يعتقدون ان دم المقتول يصرخ دائماً في الليالي الدامسة ، ويطلب من اولاده واقاربه وعشيرته ان ينتقموا له من قاتله .

ينتظر البدوي الفرصة الموافقة لأخذ الثأر بصبر عجيب ، ويقدم على هذا الأمر بنفس

(١) محاضرة الاستاذ عبد الله رعد كان ألقاها في ردهة المجمع العلمي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هادئة وسرورٍ عظيم ، لانه يعلم أن القضاء لايطالبه بهذا الدم ، اذا كان دم القاتل نفسه او دم اولاده اواقربائه حتى الدرجة الخامسة . اما اذا زادت هذه القرابة على الدرجة الخامسة فيعد قتله عندئذٍ جرمًا . على ان ارباب الحق الذين يعجزون عن الأخذ بالثأر لقلتهم او لضعفهم تجاه بسالة عدوّهم ، فانهم يلتجؤن الى امير كبير من عشيرة أخرى يعرف بجرأة صدره ، ورباطة جأشه ، وثبات جنانه ، وهو ينتقم لهم من عدوهم . اويطلب القاتل ويلزمه بالقيام بحق الدم .

* * *

إن من يتأمل في عادة الانتقام ، أيها السادة ، يحكم لأول وهلة أنها بربرية لا يقدم عليها الا الامم المتوحشة . وهذا من الصحة على جانب كبير لولا وجود هذه السنة في البادية لغدت القفار الأعرابية دار حربٍ دائمة ، لأن المجرمين لايهابون قتل النفوس البريئة ، اذ لارادع يردعهم ، ولاسيف يمنعهم . وسنة الدم بالدم تصد الاشرار ، لذلك يندر القتل في البادية . وخوفًا من العقاب لايهدر البدوي دم المسافرين ، بل يكتفي بسلبهم ثيابهم واموالهم . ثم إن العرب يرحلون على ظهور اباعرهم طلبًا للرزق الحرام من الغزوات ، فهم مع ذلك يتجنبون القتل لئلا تنزل بهم الضربات الهائلة التي تأمر بها شريعة الأخذ بالثأر . وهذه الشريعة تجعل البيداء في أمن وسلام ، يسافر فيها المرء غير خائف على نفسه وان سلبوه ماله بخلاف القفار الإفريقية حيث يُقتل قبل ان يُسلب .

* * *

(ماهو القاضي البدوي ؟) — قاضي العرب أمير من أمرائهم تسلّطه القبيلة أو العشيرة على أفرادها ، لاظهار الحق من الباطل طبقًا للتقاليد البدوية ، والعوائد النقلية القديمة . على أن الأعراب قد لايرضون بقاضٍ واحد كبير يترأسهم ، بل يوكلون القضاء الى وجوه العشيرة وكهولها ، فيأتون اليهم ويعرضون دعواهم فيحكمون بينهم بحسب عاداتهم الجارية . هؤلاء الرجال لاينالون كالقُضاة الحقيقيين راتبًا لقضائهم ، وانما يعملون ذلك ، كما يقولون ، لوجه الله الكريم ، والمتخاصمون يلبثون أحراراً في الخضوع لحكمهم أو رفضه ، ورفع الدعوى الى القاضي الكبير .

القاضي الكبير يرثُ الحكم عن أبيه لأن العرب مولعون بحفظ الأصل والنسب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولكنه لا يتسلط على الأعراب الا اذا نال رضي الجميع ، بسديد رأيه ومعرفته للحقوق البدوية . ولهذا القاضي سلطة واسعة تفوق سلطة الحكام في الممالك المتمدنة والربوع العامرة . فاذا قال كلمته انقطع الحديث ، وباد الاعتراض وصمت المتخاصمون . ولهم عادة حميدة تذكر بالثناء عليهم ، وهي ان قاضي العشيرة اذا رُفعت اليه دعوى باحد أقاربه لا يحكم فيها بل يحيلها الى قاضٍ آخر غيره من القضاة المجاورين أرباب العدل والانصاف ، لئلا تحوم حوله الظنون .

* * *

(كيف يجري القضاء عند العرب ؟) — اذا وقعت الخصومات بين العرب على ممتلكاتهم من الحيوانات والارضين ، هاج هائجهم ، فتستفزهم في الحال نزوة الغضب ، فينتفضون من الغيظ ، ويرتجفون من الحنق ، فينتضون السيوف ويطلقون الرصاص ، لما طبعوا عليه من حدة الأخلاق ، وحفظ الحقد والضغينة . والسرقة عندهم من الفضائل ، والكذب جارٍ عندهم مجرى العادة يضربون به المثل قائلين « الكذب ملح الرجال ، وعيب على من يصدق » . فاذا حل الخصام ، وارتفعت الأصوات والشتائم ، وانتضيت السيوف وسمع أزيز الرصاص ، دخل المصلحون بين المتخاصمين ، وحملوهم على الكف عن الخصام ، وحل المشكل بالقَسم أو بحكم القاضي .

أما القَسم فمن أرهب الامور عند العرب وأقدسها ، ولا يقدمون عليه الا مضطرين . لأن الأعرابي تملك قلبه الخيالات المخيفة ، والتصورات المرعبة ، لذلك يتجنب الحلف ولو كان به صادقاً ، ويهاب اتخاذ المولى الكريم أو أحد أوليائه وأنبيائه شاهداً على صحة قوله ، ولو كان من قطاع الطرق .

والقسم عند العرب أنواع مختلفة : منه ما يسمونه القسم الجاري أو القسم الصغير ، ومنه قسم اليد ، والقسم الكبير ، ومنه القسم العُشبة ، ومنه قسم النملة والشملة .

ففي القسم الصغير يقوم الشيخ وسط الخيمة ويقول : أُقسم عليك بالله وبصلاة محمد هل فعلت الامر الفلاني . فيقول والله وصلاة محمد لم أفعل .

وفي حلف اليد ، يضع المحلَّف يده على رأس المحلِّف ويقول : « أناشدك الله ، بما تحوش وتنوش ، بحلاّبات الحليب ونسّافات العسيب (اي الخيل) ، وبالنساء وما تجيب ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

داخل عليك بالمال والعيال ، من الحل والإستحلال ، اليوم بين عينيك وباكر بين متنيك (أي اليوم تراني وغداً تحملني على النعش) بغيبته عليّ وبيّنه عليك ، ان اطلعتها تسرّك وان خبّيتها تضرّك ، اماصار كذا وكذا ؟ فيجيب : إي بالله ورسوله صار كيت وكيت . أو : لابالله ورسوله ما صار ذلك » .

ويقولون ايضاً في أقسامهم « انا حاضر بحضارك وبموقد نارك ، أماصار كذاو كذا»

ويقولون في حلف العشبة : بحق هذه العشبه الملويه والكاذب ماله ذريه .

أما قسم النملة والشملة فدونكم وصفه : حينما يكون العرب وكبارهم ملتئمين في شقّ الرجال من الخيمة ، وقد طال الجدال بين فريقين على أرضٍ أو فرس أوغير ذلك، يقوم أمير البيت ويخرج بمجلسه خارج الخيمة ، ثم ينتضي سيفاً ويخطّ به دائرة كبيرة ، ويضع في وسط الدائرة حبة حنطةٍ ونملة . والحنطة تدلّ عند العرب على أكرم ماخلق الله تعالى والنملة تمثل الحكمة والفطنة والإدراك . ثم يمدّ السيف في منتصف الدائرة . عندئذ ينزع المتهم عنه سلاحه ويدخل في وسطها ويضع يده على نصاب السيف ويقسم قائلاً : « والله العظيم والسيف الكريم مافعلتُ الشرّ ولا سرقتُ ولا قتلت الخ » .

وكثيراً مايمتقع لون الرجل ، وترتخي مفاصله ، وترتجف يداه ورجلاه من الرعب ، وربما رجع عن الحلف وأقرّ بما فعل .

والحلف بالمقامات يعدّ عند الأعراب من الأقسام العظمى . وربما أقسم البدويّ بالله مراراً عديدةً وأبى أن يقسم بالأولياء والمزارات المقدسة كمزار النبي شعيب ، والنبي هوشع ، والشيخ عبد الله ، ونحو ذلك من المزارات المشهورة عند العرب .

على ان العرب يدعون غالب الأحيان القسم لرهبته ، ويلجأون الى القاضي البدوي . وهذا مايدعونه (بالقضوة) .

فما أجمل بيت الشعر حينما يزين بانواع الأثاث ، ويفرش بالسجاد الفاخر ، ويعلّق على جدرانه السلاح اللامع . يجلس الامير في صدره للقضاء ، ومن حوله وجوه العشيرة . فيُسمع صوت «المهباج» يدق القهوة ، فتطيّب ويطاف بها على الحضور دفعاتٍ متواليـة . وبعد شرب القهوة يقوم احد المتخاصمين وهو المدعي ، ويجلس في وسط الخيمة بين الحاضرين ويلتفت الى القاضي ويقول : وهو عندهم بمثابة الاستدعاء يفتتحون به الدعوى : « وايش

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بك يا قاضينا ، يللي بحقك تراضينا ، جيتك هدّي ومشيا قدّي ، أفلح وصلّ عالنبي (فيقول الجميع الصلاة والسلام عليه) ، حظّي وحظّك يدخلان على اربعه واربعين نبي ، من الفوط والنوط والحق الردي ، وانا داخل عالمال والعيال من شي مبيّن عليّ وعليك غبي ، وانا حاططها بعيونك السود وربعك القعود ، وبالامرأة وماتجيب ونسّافات العسيب » . ثم يذكر ماجرى له بصوت جهوري بحيث يسمعه الحضور من أطراف الخيمة ، ويوردُ البراهين في ذلك ، الى ان ينتهي ويعود الى مقامه الاول فيقوم المدعى عليه ويجلس في وسط المجلس ، ويكرر المقدمة نفسها : وايش بك ياقاضينا الى آخر الديباجة التي اتينا على نصها بالفاظهم ولغتهم المستعملة في البادية . ثم يفصح عن ادلته . ولا احد يعارضه في شيء . والقاضي بين كل ذلك صامت لا يبدي كلمة . وفي آخر ذلك يلتفت القاضي الى المتخاصمين ويقول : أفلحوا وأصلحوا خيرٌ لكم . فاذا أبيا الاإظهار الحق يقول : قدموا الرزقة .

* * *

« الرزقة » — هي اجرة يدفعها احد الخصمين للقاضي تقدر بربع قيمة مايخاصم عليه وقد يجري في هذا التقدير جدال طويل يدوم ساعات من أجل تعيين مقدار الرزقة إن نقوداً او عروضاً كفرس مثلاً أو سيف أو بعير . وربما لم يقبل بها القاضي فيرفض الحكم الى ان يستحسن ما يقدّم له .

والرزقة أنواع كثيرة ، منها مايسمونه رزقة المبطل ، ومنها رزقة الحق . فرزقة المبطل هي التي يدفعها المجرم أو المفتري للقاضي ، ورزقة الحق هي التي يدفعها صاحب الحق . واذا استأنف المحكوم عليه دعواه الى قاضٍ اكبر وحكم له بالحق . وكان قبل ذلك قد دفع رزقات عديدة يردُّها له المحكوم عليه . لأن للمستأنف الكاسب حقاً بجميع الرزقات التي يكون قد دفعها للقضاة من قبل .

* * *

(الكفلاء) — وبعد ان يتفق الخصمان على الرزقة يجب عليهما ان يقدّم كل واحد كفيلاً يتعهد أمام الشهود بدفع الرزقة اذا ابى الآخر تقديمها . فيقولون : « ترى ياشيخ فلان هذه المسألة في وجهك » . وان كان الكفيل غائباً يقولون : « ترى ان هذه المسألة في وجه فلان » اي أنه يتعهد بدفعها أو يحمل المتخاصمين على دفعها . فيقول القاضي للكفيل :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« عنـدك الشيءُ الفلاني » فيجيب : « عندي ماتطلب ، وحق الله ورسوله اني ما أبوق » (أي لا أخون العهد) .

رأينا أن الكفيل نوعان : غائب وحاضر . فالغائب هو الذي لا يحضر مجلس القضاء حينما ترفع (الدعوى) فيختاره الحاضرون والقاضي لإنفاذ الأمر . والحاضر هوالقائم بين الحضور في أثناء الدعوى . على ان لكل منهما واجبات خاصة تختلف عن واجبات الآخر : فالغـائب مضطر الى قبول الكفالة ، والحاضر له الخيار في قبولها أو رفضها . لذلك جاء في أمثالهم : « الغائب مضطر والحاضر حر » . ولا بد للكفيل من صفاتٍ ، أخصهـا أن يكون معروفاً بين العشيرة بصدقه واقتداره على الدفع .

والذين يُحرمون حق الكفالة هم شاهدو الزور ، والجبناء الذين يشردون في الحروب والغزوات ، هؤلاء كلهم مرذولون عندالعرب ، لا يُقبلون في مجالس الكرام ، ولا يشربون القهوة في خيام الامراء ، ولا تقبل لهم شهادة . واذا جلس أحدهم في مجلس الشيوخ صب له الشيخ القهوة ، وبينما هو يرفع الفنجـان الى فمه ينزعه الشيخ بعنف منه ويهرق القهوة على التراب ويقول له : انت لاتستحق القهوة ولا لك مقعد بين الرجال .

* * *

(الشهود في الدعوى) — وبعد تعيين الكفيل ، يتجه القاضي نحوالمدعي ويقول له : يا فلان ، اذا كان عندك شاهد لا يكـذب ولا يوجد عليه اعتراض فليتقدّم ويشهد . فيجيب : عندي يا قاضي العرب فلان وفلان وفلان . فيلتفت القاضي الى أكبر الحاضرين ويقول له : وأيش تقول يا شيخ عن فلان ؟ فان كان مقبولُ الشهـادة يقول : « والله انه مقبول الشهادة ، ما انا خابر عليه الذرب الذي يذربه عن الشهادة » وان كان مرفوض الشهادة يقول : « واللهِ انه غير مقبول » .

وقد تقعُ الخصومات في اختيـار الشاهد فمنهم من يرفضه ومنهم من يقبله . ويطول الكلامُ بينهم الى حدٍّ يسأمُ منه الحاضرون ، الى أن يَقرّ رأيهم على شاهدين . فيقفانِ ويقسمانِ القسم البدوي ، يقول كل واحدٍ على حدة : « واللهِ العظيم ، والربِّ الكريم ، وحياة العود ، والرب المعبود ، والكاذب ما له مولود ، لا غيظ شافيه ، ولا طمع راجيه ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(إي إنه لا يحلف لاخذ ثار ولا لاجل مال) الا حق الله من رقبتي مؤدّيه ، ان هذا الرجل قد فعل كذا وكذا » .

وللشاهد حقٌّ في طلب هديةٍ ما اذ لا بدَّ له من القَسم ، والعربُ كما أوضحت يرهبون القَسم ولو كانوا صادقين . لذلك هم يقدّمون للشاهد هديةً بدوية كسيفٍ او عباءةٍ او نحو ذلك .

والنساءُ في جميع العشائر لا تُقبلُ لهم شهادةٌ الا عند عشائر النصارى في الصلت والكرك ومادبا وغيرها في شرق الاردن ، وشهادتهن ثابتة قوية .

* * *

(الحكم) — وبعد ان تنتهي المحاكمة ينطق القاضي بامثال يبين فيها احكام القضاة من قبله في امورٍ جرت من عهدٍ قديم . فيروي حكايات واقعة أو خيالية يذكر فيها الحكم مبهم الكلام ، وربما أتى بامثال حيوانات تنطبق على الامر الواقع ، حتى يدرك الحاضرون الحكم المراد قبل ان ينطقُ به . واخيراً يفوه بالحكم القاطع بقوله : « انا من عندي ، ومن عند القضاة الذين قبلي ، ومن عند اجاويد الله مثلكم ، إن فلاناً هو المجرم ، وفلاناً هو البريء » ويورد في ذلك الادلّة والبراهين والاسنادَ كي لا يبقى في الامر ريب . وهنا ينتهي الحكم فيقوم جمهور الحاضرين وينصرفون الى بيوتهم وهم يرددون الحكم المبرم .

* * *

(العقوبات) — والعرب يدعونها الحق . فمنها حق الشتائم ، وحق البيت ، وحق الوجه ، وحق الدخيل ، وحق الدم ، وحق الطنيب ، وحق القصير ، وحق العرض ، وغير ذلك .

وقبل ان نذكر شيئاً من هذه العقوبات عند البدو ، يجمل بنا ان نأتي على ذكر عواطف الشفقة والحلم التي تغلب عند عرب البادية مرات على حب الانتقام ، وتحملهم على الصفح . سمعنا حوادث كثيرة تدل على عفو العرب عن أعدائهم ، ودونكم النادرة الآتية :

كانت النار تضرم ذات ليلة في مضارب بني صخر ، والكلاب تنبح فتدعو المسافرين الى خيمة الشيخ واذا بشاب لطيف قد نزل عن فرسه وحيا الضيوف قائلاً : السلام عليكم . فقالوا وعليكم السلام . قال حيا الله الرجال ، قالوا حيا الله الرجل . قال العوافي يا غانمين ، قالوا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حيا الله الغانم . ثم جلس بالقرب من الشيخ وبات عنـد العرب اياماً طوالاً لا يسألونه فيها جهة القصد . الى ان حان وقت طغاه فيه الشيطان فاسقطه في زلّة كبرى : ذلك انه رأى ابنة الشيخ فسحر بجمالها ، ولما انسدل الليل هجم على خيمتها فقتل العبد الحافظ لها وخطفها وسافر . فذاع الخبر باقل من لمح البصر ولحقه اخوتها الثلاثة . وكان كلما تقدم اليه احد يضربه برمحه فيرميـه مجدّلاً على الارض . أخيراً لحقه الفرسان فانهزم الى ان لقي خربوشاً (والخربوش هي الخيمة الصغيرة لها عمود واحد) وكان على باب هذا الخربوش شاب في مقتبل العمر فصاح به وقال : يا أبا رشيده انا في وجهك وفي مرقد عيالك . قال : لقيتَ خيراً ومرعى وامانًا . ولما اقبلت العشيرة تطلب الابنة وحق الدم أرجعهـا الشاب وقال : « هو البيت يحمي الطريد والشريد ، وهو الوجه يدفع صدمات العـدو » . فرجع القوم صامتين . وسأل الخاطف الابنة عن صاحب البيت فقالت : « سوّد الله وجهك هذا ابن عمي وخطيبي قدطلبني فوعد بما طلب ، وقد مهد الصعاب كي يتزوجني اذ قاتل اولاد عمه . » فامتُقع لونه وتغيرت هيأته . على ان صاحب الخربوش اكرم مثواه في تلك الليلة ، واعدّ له خيمة العُرس وزوجه بالفتاة ، ثم صالح العرب مع الشاب وسالمهم وعاهدهم بان لا ينزلوا به ضرراً . هذه حكاية تدل على علوّ نفس وشهامة قد لا يوجد مثلها بين اصحاب التمدن ، كيف لا وقد صفح هذا البدوي عن قاتل اولاد عمه وخاطف خطيبته وصالحه مع العرب . وهل دفعه الى هذا الصفح الا سمو النفس وحبُّ الذكر ؟

(عقوبات اهل القوارع والشتائم) — يعسر على البـدوي احتمال ادنى شتيمة ، لأن العرب طبعوا على حب المجد والشرف ، لذلك هم يعدون الشتيمة أشد تأثيراً من حد السيف وقد تثير الشتائم الحروب في البادية ، وتحمل المشتوم بل واهل المشتوم ايضاً على الانتقام .

حكي عن عبدالمهدي قاضي العوازم انه قال : ارباب الشتائم يعذبون باقسا أنواع العذاب . وروي أن رجلاً من عرب العدوان رفع يده على ابيه قائلاً « اخس يا شايب » فسمع بذلك شيخ العدوان فامر بقطع لسانه . ويقال إن بدوياً بصق بوجه عدوّ له فحكم عليه ان تحلق لحيته الى نصف الذقن فقط ويبقى النصف الآخر . ومن شتم من عرب الصخور يدفع للمشتوم فرساً اوسيفاً او بعيراً او ثلاثين ريالاً . وعند بعض العشائر يضرب الشتامون بالسياط حتى يسيل منهم الدم . وبعضهم يضعون دبساً على وجه الشـاتم ، ويربطونه باوتاد فيأكله

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الذباب ، او يربطونه ويوجهون عينيه الى الشمس . ويروى أن بدوياً اهان اباه اذ رفع عليه محجانةً (والمحجانة عصا صغيرة) فألزمه القاضي ان يحرث ارض ابيه مدة سنتين .

ومن احاديثهم أن قدم شيخ هرم الى قاضي البلقاء ابن قلاب وقال : « وايش بك يا عواد بن قلاب ، يا حامي النسب ، بولد لي ربيته حتى نشأ وكبر ، واليوم قد جرني بجديلتي الى خارج الخيمة وشتمني » فقال له القاضي « اذهب يا شايب ، ما صنعه ابنك بك سيصنعه به اولاده في المستقبل » وحكم على الولد بان يبني خيمةً لابيه ويدفع له خمسين نعجة ليكرم بها الضيوف . وقد صدق كلام بن قلاب ، فان اولاد الابن جرّوا اباهم الى خارج الخيمة ، ولما انتهوا به الى الموضع الذي اوقع اباه فيه قال لهم : كفاكم أيها الاولاد الاشرار الى هنا فقط جررت ابي ، وتذكر قول ابن قلاب .

ويروي أن شاعراً من بني حسن هجا ذئبة ابنة الشيخ عوده ابي تايه امير الحويطات . فلما ورد الشاعر الى مضارب الامير قال له عوده : قبحاً لهذه اللحية ياقذاف المحصنات ، لسانك يلسع كلسع الحيات . فهرب الشاعر كئيباً ولم يذق طعاماً عند الشيخ . ولما ابتعد في البرية أمر الشيخ عوده احد عبيده فلحق به في الخلاء وقتله على هجائه .

* * *

(حق البيت) — بيت شعر في البادية ، وإن كان خربوشاً ، هو رفيع الشأن عظيم الاكرام عند العرب . ومن اهان بيتاً عندهم اهان اصحابه النازلين فيه ، لا بل اهان العشيرة كلها . ومن تعدى عليه نال جزاء تعديه إهانةً وعذاباً . وهم يعدون اهانةً تكسر شرف البيت تلك التي تحصل من بدويين يتخاصمان في بيت حتى يصل بهما الخصام الى المسبّات والشتائم او رفع الاسلحة . فالبيت يطلب حقه . واذا أهين صاحب البيت في بيته ، فالبيت وصاحبه كسر شرفهما ، وصار على الشاتم حقان حق البيت وحق صاحب البيت .

وبعض الاعراب يزعمون أن من ازدرى بالبيت واحتقره ، فقد صنع ذلك ليس نحو الاحياء النازلين به فحسب ، بل تتعدى الاهانة الى أجدادهم وأمواتهم .

إهانة البيت يحاكم عليها امام القاضي . فينتصب المدعي وهو صاحب البيت في وسط الجماعة ويقول : « ويش بك ياقاضي العرب ، يا حامي النسب ، بفلان إلّي كسر شرفي بقوله كيت وكيت ، واهانني في عشيرتي ، وبحضور جماعتي ، واهان ضيفي ، فودّي منّك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ان يبيض الوجه » ثم ترد الشهود وتشهد على صحة مدّعاه . فينتصب القاضي ويقول : « انا من عندي ، ومن عند القضاة الذين قبلي ، فلان كسر شرف البيت وأهان صاحبه وضيفه » ثم يحكم عليه بدفع عشرين ناقةً وخمسين نعجة لصاحب البيت ، وثلاثين ريالاً لضيفه المهان . فيقول المجرم « نعم انا مستعد ، امرك يا قاضينا فوق الراس ، وبعد ذلك يقوم احد الشيوخ الحاضرين ويقول لربّ البيت « حقك على الرأس والعين ، ولكن من شأن الشيخ فلان دع له خمس نياق » فيقول « من شان خاطرك وخاطر السامعين تركت ما تريد » ثم ينتصب شيخ آخر ويقول « يا شيخ فلان اترك له من شان الجماعة ومن شان والديك كذا وكذا » فيقول « تركت ما طلبت » وهكذا الى ان يصبح المطلوب سهلاً وخفيفًا . ثم يبيضون وجه رب البيت المحكوم له وذلك بان ينشروا له راية بيضاء يطوفون بها حول الخيام وهم يقولون « راية فلان بيض الله وجهه » .

* * *

« حق الوجه » — الوجه عند العرب هو الكفيل الموكل باجراء ما يتفق عليه فريقان من فعل خير او اتقاء شر . والوجه لايخون صاحبه أبداً ولو فقد ماله وحياته . فاذا باع امرؤٌ ارضًا او فرسًا او غيرهما من الأشياء يقول البائع للشاري « ترى بعتك بوجه فلان ان طلبتها ادفع كذا وكذا عقابًا على ذنبي » وكذلك الشاري يقول « ترى اشتريت بوجه فلان ، ان ارجعتها ادفع كذا وكذا عقابًا على ذنبي » . واذا تشاجر اثنان ثم تسالما يقول الواحد لصاحبه « ترى بوجه فلان تصالحنا ومن اضر قريبه لايلوم الا نفسه » . ومن اودع وديعة وخاف عليها من السرقة او من الاتلاف يقول للمؤتمن عليها « ترى فلان وجهٌ عليك » . فمن تعدى على صاحبه في مثل هذه الأحوال يجد امامه اعداءً كثيرين بسبب الوجه ، لان العشيرة كلها تقوم مع الوجه يداً واحدة . والمتعدي عليه يلتجئ الى الوجه ويقول له « ياشيخ فلان ، قد صار الأمر الفلاني بوجهك ، وخصمي فلان تعدى عليّ وكسر وجهك ، فبيض وجهك ووجهي » فيجمع الوجه مجلساً مؤلفًا من القاضي البدوي والامراء المعروفين ويُرسل رسلاً ليأتوا بالمعتدي . فيقصّ الوجه قصته على الحاضرين ، والمعتدي في اثناء ذلك راكع والعقال في رقبته دلالةً على التذلل . ثم يحكم القاضي على المعتدي بدفع ما عليه ويعاقبه بدفع عشرة خرفان للوجه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(حق الدخيل) — الدخيل عند العرب هو الرجل المستجير الخائف من امر دهمه او سيدهمه ، فيعمد الى شيخ كبير قوي يستغيث به ويطلب حماه ، ويقول له « انا دخيلك احمني وارحمني » . ورب مستجير يأتي في الليل ويرتمي على فراش الاولاد في خيمة الشيخ ويقول بصوت متقطع حزين « انا بحضارك وموقد نارك ، انا داخل عليك من السيف والحيف ومن فلان صاحب الحق الردي » ثم يبسط له سبب اعتصامه به . فيقول له الشيخ « ابشر بالعز والهناء وعش في ديارنا فمرحبا بك » ثم ينزع كوفيته من على رأسه ويضعها على رأس الدخيل ويقول « الله ورسول الله لا احد ينزع من رأسك شعرة » .

وحينما يقبل الشيخ الدخيل في منزله يرسل رسلاً الى عدو الدخيل وطالبه يقولون له « ترى فلان دخيل في بيتي احذر ان تصيبه باذى » فيجيبه الرجل « اطلب خصمي الى القضاء » فيقول صاحب الدخلة « أعطه عطوة » والعطوة في البادية هي هدنة من الزمان يمتنع فيها العدو عن الانتقام الى ما بعد المحاكمة ، وهذه الهدنة تكون عند بعض العشائر اسبوعين ، وقد تمتد عند غيرها الى اكثر من ذلك ، ومعظمها شهران .

وفي أثناء المهادنة يبعث صاحب الدخلة وفوداً الى عدو دخيله ثلاث دفعات متوالية ، مستخدماً الوعد تارة والوعيد أخرى حتى يرعوي وينثني للحق الذي يحكم به الاجاويد او القاضي ، وان ابى الا الانتقام وأخذ الثار بيده ، يجمع الشيخ فرسانه الشجعان ويقودهم الى منزل العدو فيسلبون ما يجدونه هناك من المواشي ويقودونها الى أرض قاحلة لا مرعى فيها فيضطر حينئذٍ الى المصالحة . وان أصر على عناده تموت اغنامه ويصبح فقيراً ولا يحق له ان يطالب صاحب الدخلة بشيء لانها تحسب عقاباً له وهي حق الدخيل .

* * *

(حق الدم) — السنة عند العرب هي « الدم يطلب الدم » على ان من لا يقدر على أخذ ثأره يطلب الدية ، وتدعى عند الأعراب «العقلة» وقدرها ٣٣٦٣٣٣ قرشاً . وقاتل المرأة وخصوصاً العذراء يدفع اربعة اضعاف الدية ، لأن المرأة انسان ضعيف وقتلها جرم كبير على الرجل وإهانة مُذلة له .

فاذا ذبح أعرابي عدوه يسعى حالاً في طلب امير كبير يحتمي في ظله ويعتصم بمعقله هو وماشيته خوفاً من ان يقتل وفاقاً لسنة الانتقام العاجل التي تعطي اهل القتيل حقاً مدة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثلاثة ايام ان يأخذوا ثأرهم بذبح القاتل واهله وهدم بيته وسلب ماشيته . فالامير المجير يلتزم أن يبذل جهد طاقته لتخليص المجرم من طائلة هذا الانتقام ، ولو كان القاتل المستجير من اعداء العشيرة ، او عدوّه ، او قاتل ابنه او احد اقربائه ، لان الشهامة الأعرابية تحتم عليه ان يحامي عن الضعيف المستجير .

اذا وصل المستجير امام الخيمة وقال لصاحبها « انا دخيلك » او تمسك باطناب الخيمة او وقف امام الخيمة فقط فقد عدّ دخيلاً . وان قتله احد خارج الخيمة قبل ان يبلغها وكان المدى بين مكان وقوعه قتيلاً وبين الخيمة التي أتى ليستجير بصاحبها لا يتجاوز رمية عصا ، فقاتله يضطر الى دفع دية الدم وحق الدخلة .

وعند ما ينزل القاتل عن فرسه يذهب توًّا الى فراش الامير فيجلس عليه ويقول « انا دخيلك بعيالك وحلالك ، من الحظ المنكود ، والسيف المجرود ، والظالم الحقود ، والكاذب ما له مولود » فيجيبه الامير « يا هلا ، ابشر بالعز وطيب المنزل » عند ذلك لا يهتم القاتل بشيء بل يعيش بصفاء ، والسعي كله يعود على المجير . فيرسل بعثاتٍ متتالية الى اهل القتيل كي يقبلوا المصالحة ويأخذوا دية الدم . على انهم يرفضون الصلح دائماً في اول مرة ، ويطلبون الدم بالدم ، ويذكرون الدم المهدور ، الصارخ الى السماء ، الطالب الانتقام . فيعود الوفد الاول خائباً . على أن المجير لا ييأس من هذا الجواب المؤلم لأن هذه هي العادة عندهم ، فيعيد الكرّة بعد ايام مرسلاً اليهم وفداً اكبر كي يصلحوا ذات البين ويأخذوا الدية ، فيرجع ايضاً الوفد الثاني مكسور النفس . وفي غالب الاحيان يصير الصلح بعد المرة الثالثة لان العرب ترتفع بهم العواطف النبيلة اذا شاهدوا كبراء البيداء متذللين أمامهم . ولكن ان ابى اهل القتيل المصالحة بعد المرة الثالثة ، فتلك دلالة على انهم لا يريدون الا الانتقام ، ويجب على القاتل حينئذ ان يهرب في ظلمات الليل الى بلاد بعيدة ويعتصم بقبيلة شهيرة .

والذين تصيبهم سهام الانتقام هم اهل القاتل واقرباؤه الى الدرجة الخامسة اي ابو القاتل وجدُّه واولاده واولاد اولاده واعمامه وابناء اعمامه . اما الاباعد من الأسرة كابن العمة وابن الخالة ونحوهما فلا يؤذى بضرر بل يقدم لاهل القاتل بعيراً يسمى عندهم « بعير النوم » ويبقى في خيمته غير خاشٍ صولة الاعداء .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(حق الطنيب) — ويدعى ايضاً حق القصير ، والطنيب تصغير الطُّنُب وهو حبل الخيمة . وعند العرب الطنيب هو الجار المستجير ، ويعتبر طنيباً اذا علّق بعض آلات صناعته على طُنب من أطناب الخيمة ، ومنهم من يكتفي بالكلام فقط فيقول : « يا شيخ فلان ياأبافلانة انا طنيبك » فيقول له « ياهلا بك » .

فمن الأعراب من يترك عشيرته وبيتَ أبيه فيحمل خيمته ويرفعها الى جانب شيخ عظيم ، ويكون ذلك اذا خشيَ عدوًّا لا يقدر على مقاومته أو وجد ضدّه عدداً وافراً من الاعداء لا يستطيع منازلتهم أو قدِم طلباً للرزق والشغل عنده في حراثة ارضه . فما من احد إذاً يضطرُّ الى مجاورة أمير غريب عن عشيرته ووطنه الا ان يكون ضعيفاً أو فقيراً . ويقول العارفون بعادات العرب ان الضيف يسمى عندهم ضيفاً مدة ثلاثة ايام وان طال مكثه عُدَّ طنيباً . وكم من قاتل مثلاً نزل بالقرب من أمير كبير في بلاد بعيدة عن وطنه فسمي باسمه وتطبع بطبائع عشيرته وقد نسي أصله ونسبه بعد طول الزمان .

ومن غريب ما يجري في هذا الحق إن بعضاً من التجار ينزلون في خيام العرب أو عند الشيخ ليبيعوا بضاعتهم من ملبوس ومأكول في حماه ، فيصبح شأنهم شأن طنيب هذا الشيخ أو قصيره . ويلتزم الشيخ ان يجمع لهم ديونهم من المديونين ، واذا تعصّب المديون وامتنع عن الدفع يضطر الشيخ نفسه الى الدفع كي يبيض وجهه أمام القصير . واذا سُرق شيء من القصير ، فعلى الشيخ ان يسعى باسترداده له .

* * *

(حق العرض) — البادية بلاد تنحت عن المنكرات ، وهي في هذا الباب أشرف من المدن المتمصّرة حيث يظهر المنكر ظهوراً جلياً على حد ما قال الشاعر الشعبي : « ما في شي اسمه عيب » . فالنساء في القفر على الجملة عفيفات يتجنبن الطرق السافلة وأبواب المحرمات . وقد تسير المرأة البدوية وحدها في البادية ترعى الإبل والنعاج ، ولا يعارضها احد أو يتعدى عليها .

على ان جرماً من هذا النوع كثير الحدوث في البيداء ، الا وهو الخطف . وكم من شيخ بكى على ابنةٍ له كانت سعادته في هذه الدنيا ، فغابت عن أنظاره في ليلة داجنة ، وبات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هو يطوي الايام والأوقات بالحزن والبكاء . وهم يقولون فلانة خطفت فلاناً . ولا يقولون فلان خطف فلانة .

اذا رام الشاب البدوي ان يتزوج بابنةٍ على غير إرادة أبيها واتفق معها على خطفها يتواعدان الى زمان ومكان محدودين ، فاذا ستر الليل الارض يأتي الى الابنة ويردفها وراءه على فرسه ويهرب بها الى بلد بعيدة . وربما وجدها واردةً على عين ماءٍ أو في حقل فخطفها بعد ان يكونا قد اتفقا . ولا بد للخاطف من عقاب شديد اذا وقع .

قلتُ ان الخطف كثير في عرب البادية . وقد لا يمر شهر الا ويسمع فيه خبر كهذا بين الأعراب ، والحق في ذلك في غالب الأحيان على أهل البنت الذين يطمعون ببيع بناتهم باثمان باهظة حين زواجهن ، فان البنت عند العرب تكون لمن يقدّم مالاً وحلالا أكثر من سواه ، لذلك يصير الزواج عندهم على غير حب ووداد .

فاذا خُطفت ابنةٌ وكان خاطفها من قبيلة قريبة ، ركب أهلها وأقاربها ليرجعوا الشرف المفقود والإبنة الهاربة ، ولهم الحق بان يصنعوا ما يشاؤون في مدة ايام ثلاثة فقط يسوغ لهم فيها ان يقتلوا الخاطف ويهلكوا غنمه ، ويهدموا خيمته ، ويذبحوا فرسه ، وهم يسرفون بما تصل اليه ايديهم إسرافاً لا يستبقون لانفسهم منه شيئاً وان هم استبقوا رذلوا وأُهينوا ، واذا مضت الأيام الثلاثة ولم يظفروا بالخاطف ولم يستطيعوا فيها إرجاع شرفهم المفقود ، حل بهم العار والخجل ، فيرحلون وينزلون وحدهم مؤثرين العزلة والغربة . والخاطف يتزوج بالفتاة التي خطفها آمناً لا حرج عليه .

وفيما خلا الخطف ، فمن اقدم من البدو على الفواحش بنفس راضية ، يردعه الشيخ مع وجوه العشيرة مرات عديدة ، وان هو لم يرتدع يحكمون عليه بالنفي ، ويكون دمه مطلولاً لا يطالب به وهي عادة محمودة تحمل العرب على تجنب المنكر خوفاً من العقوبات الصارمة .

ومما يخفف وطأة الفواحش في البادية خوفهم من العار والهوان ، لأن البيداء لها آذان تسمع وعيون تنظر ، فلا يخفى فيها خافٍ ، ولا يوجد فيها سرٌّ مكتوم . قال احدهم ان أهل البادية كالمشرفين على رأس الجبل ، يراقبون الحركات والاشارات الخفية ، ومن وُجد جرم فظيع في بيته قد يُحرق خيمته ويُنشر رمادها في الهواء .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولقد اتخذت العرب وسائط فعالة لمنع الفواحش ، فاذا أحسّ أبٌ بجرم ابنته يقطع رأسها ويعلقه على رمح ويطوف به في كل القبيلة قائلاً : « هكذا يعاقب المجرم » ومنهم من يئدها حيةً فيغطيها بالتراب الى ما فوق رأسها . ومنهم من يغمرها بالتراب الى رقبتها فقط ، فتأتيها الوحوش وتذيقها من العذاب أمرّه . ومنهم من يسقيها السم . ومنهم من يضع على جسمها دبساً أو عسلاً ويتركها فريسة الذباب تموت أشنع الميتات . ومنهم من يأخذها الى الفلاة فيضربها ضرباً أليماً ، ثم يربطها بأوتادٍ في الارض حتى تفترسها الحيوانات الضارية . وقد سمعنا أن رجلاً ألقى إبنته في بئر عميقة . وان غيره ربطها الى شجرة جرداء وكان وجهها الى ضياء الشمس فاحترقت وماتت من الجوع ووقدات الأشعة وأكثر الناس يذبحونها بلاشفقة بسيف حادٍّ أو يقتلونها برصاصة في رأسها . وقرأتُ أن أباً ترك ابنته خارج المحلة على صخرة شاهقة في فصل الشتاء القارس ، وكانت الامطار تهطل والرعود تقصف والثلوج تسقط ، فماتت وقد جمد دمها ويبست أعضاؤها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net